القرآنُ الكريمُ كتابُ هَدْيٍ ودعوة إلىٰ منهج الحقّ مع الحُجَج والبيّنات

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)

من الصفحة ١٢ حتى الصفحة ٤٦

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناءً على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

القرآن الكريم
كتاب هدي ودعوة إلىٰ منهج الحق
مع الحجج والبينات من الهدىٰ والفرقان

إن كلَّ مَنْ تلا آيات القرآن الكريم أوْ سمعها وتَدَبَّرها يتضح له جَلِيّاً أنَّه جاء بالهدىٰ الثابت بالبينات ، بحيث يحمل العقلاء علىٰ أن يعقلوا ما تضمنته آياته ، وما اشتملت عليه بيِّناته ، ينهض بِأولِي الألباب إلىٰ التبصُّرِ في بصائر آياته ، ويدعو الحكماء إلىٰ التفكر في أحكامه وحِكَمِهِ ، وفي علومه ومعارفه ، وفي معانيه ومفاهيمه ، وأسراره وعجائبه التي لا تنقضي ولا تنفد ، مهما امتدَّت العصور ، وتطوَّرتِ القرون والدهور.

ويَتَبَيَّنُ ذلك من وجوهٍ عديدة لا تُحصىٰ ، وإنما أذكر منها أطرافاً موجزة ، تضيء للباحث المُفَكِّر المُتَدبِّر طُرُقَ بحثه وتفكيره وتدبره ، فيعلم يقيناً أنَّ القُرآنَ هو: كتاب دعوةٍ وبرهان ، ودَليل وتِبيان ، لجميع الطبقات ، وعموم البيئات ، علىٰ مَمَرِّ العصور وامتداد الدهور:

الوجه الأول: القرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ ليعقله العقلاء ،

ويتفهمه الحكماء ، لأنه الكتاب الحكيم ، قال الله تعالى : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ .

فهذا إعلان من الله تعالىٰ لعباده ، صَدَّر بِهِ هذه السُّوَر الكريمة ، يُعلمهم أَنَّ ما جاء به هذا القرآن الكريم هو الحق المحكم ، والمعقول المبرم ، ليس فيه مصادمة للعقول السليمة ، بل إن تلك العقول السليمة لتتلقَّىٰ ما جاء به هذا القرآن الكريم بِحُسْن القبول ، مع الانقياد والتسليم له ، كما أنه لا يستطيع العقلاء أَنْ يَنقضوا الحقَّ الذي جاء به هذا القرآن الكريم ، أو يَرُدُّوه . ويتضح ذلك من جوه متعددة :

أ ـ لقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي الناس إلىٰ العقائد السليمة ، والأعمال الشرعية الحكيمة ، والآداب والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فلو أنه جاء بما ينافي ويعارض عقلاء المكلَّفين لبطلت الحكمة في إنزاله ، وعاد الأمْر عليه بالنقض ، لأنه حينئذ لا تتقبله عقلاء المكلفين؛ فَضْلاً عَنْ أَنْ تعمل بمقتضاه ، وتتحقَّق بما جاء به من عقائد وأعمال وأخلاق ، فإنَّ العمل بغير المعقول لا يَسُوغ عند أهل العقول .

ولكن الأمر الواقع هو أَنَّ الله تعالىٰ بَيَّن في كتابه العزيز الأدلَّة المعقولة المقبولة المحكمة ، ليتلقَّاها العقلاء بالقبول والتصديق ، وليعملوا بمقتضاها ، سواء في ذلك : الأدلة علىٰ الأحكام الإلٰهية

الإيمانية الاعتقادية ، والأحكام الشرعية العملية.

ب ـ إنَّ مورد التكاليف والخطابات الإلَهية التي جاء بها القرآن الكريم هو العقل ، فإذا فُقِدَ العقل ارتفع التكليف ، كما هو ثابت في الشرع قَطعاً ، وفي ذلك يقول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «رُفِعَ القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ ، وعن الصبي حتىٰ يَشبَّ ، وعن المعتوه حتىٰ يعقل»[1] ، وفي رواية لأحمد: «وعن المجنون المغلوب علىٰ عقله حتىٰ يَبْرأ».

وهذا واضح في أن ما جاء به الكتاب وكذلك السنة النبوية هو معقول ، بحيث يلزم العاقل المكلَّف أن يعمل بمقتضاه ، فلو أنه كان علىٰ خلاف ما تقتضيه العقول السليمة؛ لكان لزوم التكليف علىٰ العاقل أشَدَّ وأثقل من لزومه علىٰ المعتوه والصبي والنائم ونحوهم ، لأنه لا عقل لهؤلاء يَحْمِلهم علىٰ التصديق بما جاء به؛ أو عدم التصديق.

وأما العاقل فإنه ـ والحالة هذه ـ يأتيه ما لا يمكن تصديقه به عقلاً بل يردُّه العقل ، ومع ذلك هو مُلزم به اعتقاداً وعملاً ، وهذا تكليف بما لا يطاق ، لأنه تكليف العاقل بما لا يُعْقل ، وإن الله تعالىٰ لا يكلف بما لا يطاق.

فإذا كان التكليف بما لا يُعقل ساقطاً عن الذين لا عَقْل لَهُم ، لزم من باب أولىٰ أنْ يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً ، لأنهم حينئذ كُلِّفوا بما تنافيه العقول وترده.

---

(١) عزاه في (الفتح) إلى الترمذي وابن ماجه ، والحاكم ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

إذاً مَنِ المكلَّف بهذه التكاليف الواردة في الكتاب؟ ولمن تتَوَجَّه الخطابات الإلَهية؟؟!!.

وبناءً علىٰ ذلك فَإِنَّ نزول الكتاب الكريم يكون عَبَثاً ؛ والله تعالىٰ منزَّه عن العبث ، بل له الحِكَم الربانيَّة في إنزاله عزَّ وجلَّ الكتاب ، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنَّ في هذا الكتاب الكريم تربية العالم وصلاحه وفلاحه ، وهداه ونجاحه ، فمن ابتغىٰ الهُدىٰ والفلاح والرشاد والنجاح في غيره فقد ضَلَّ وخاب وخسر . وذلك لأن الذي خَلق العالَمَ هو أعلم بما فيه صلاحه ونجاحه ، ومِنْ ثَمَّ كان الحقّ كلُ الحقِّ ، ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة: أنَّ الذي يخلق هو الذي يَحْكُمُ وَيُشَرِّع لا غيره ، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فالخالق هو أعلم بما خلق ، والصانع هو أدرىٰ بمصلحة مصنوعه ، وهذا أمر معلوم بالبداهة.

فالله تعالىٰ الذي خلق الإنسان هو أعلم بما أودع فيه من قُوىٰ ومدارك ، وطاقات وقابليات ، وهو أعلم بَكَمِّها وَكَيفها ، ونسبها ومقاديرها ، ويعلم ما فيه من الدواعي والشهوات ، وما يُصلحها ويُعدِّلها ويكمِّلُها ، وهو أعلم بما يفسدها ويضرّ بها.

إذاً فهو سبحانه له الأمر والتشريع ، وإصدار الأحكام التي فيها مصالح العالم وخيره ونجاحه ، لأنه العليم الحكيم ، الذي يضع

الأشياء في مواضعها دون إفراط ولا تفريط ، ويضع الدواء حيث الداء.

وإنَّ حكمة كل حكيم تابعة لعلمه ، وإنَّ علم الله تعالىٰ هو العلم الذي إليه المنتهىٰ؛ ولا منتهىٰ له ، وحكمته فوق كل حكمة؛ ولا حدَّ لها.

فجاء دين الله تعالىٰ قيِّماً مُبرماً ، وجاءت شريعة الله تعالىٰ معقولة محكمة ، فيها كل خير وصلاح وفلاح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما أودع فيه من القوىٰ ، وما فيه من أمشاج مختلطة ودواعي مختلفة ، ثم إنه هداه السبيل ، وبيَّن له طريق الخير من الشر ، وما فيه صلاحه وفساده ، وسعادته وشقاوته ، بواسطة الشرائع التي أنزلها علىٰ رسله صلوات الله تعالىٰ عليهم ، فقامت الحُجة ، وأضاءت المحَجَّة ، فكانت النتيجة بعد تبصر الإنسان واختياره: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ج ـ لو جاء القرآن الكريم إلىٰ الناس بما ليس بمعقول لردَّه الكفار لأوَّل مرة ، بحجة أنه غير معقول ، وأنه مخالف للعقول ، لأنهم كانوا في غاية الحرص علىٰ ردِّه ونقضه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا ذلك ، لأنهم عَقَلُوه وعَرَفُوا أَنَّ ما جاء به هو الحق.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والمعنىٰ أنهم يَعلمون عِلْمَاً جازماً أنها الحق، ولكنهم يَجحدون بعد علم، ولا يعترفون عصبية وكبراً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والمعنىٰ أنهم يجادلون في آيات الله تعالىٰ بغير برهان ولا حجة، بل يدفعون الحق الذي جاءهم به القرآن بالباطل الذي عندهم، ويردُّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، وهم في ذلك لا يَبْلغون ما يَبْتَغونه من إجحاد الحق القرآني، وإعلاء باطلهم المختلِفِ، لأنَّ الحق لم يَزَل مَرفُوعَ الراية، وأما الباطل فهو موضوع الغَاية من البداية إلىٰ النِّهاية، فَاسْتَعِذْ بالله مِن حالهم.

فعنادهم الناشىء عن كِبر النفس، والعصبية الجاهلية، ذلك أعماهم وأصمَّهم، فراحوا يفترون الكذب، ويصفون القرآن الكريم بأوصاف متناقضة، وفي هذا دليل بطلان كلامهم، وحَقِّيَّةُ كلام الله تعالىٰ.

فتارة يقولون: هو سحر، وتارة فيه شعر، وتارةً يقولون عنه: مفترىٰ، وتارة يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، وتارة يقولون عنه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هذا تناقض منهم ، لأنها أقوالٌ كاذبة ، والكذب ليس له حقيقة حتىٰ يثبت عليها ويستقر.

وإليك هذه الواقعة شاهداً علىٰ ما سبق:

روىٰ الحاكم في (مستدركه) ، والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقرأ عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القرآن ، فكأنَّهُ ـ الوليد ـ رَقَّ له ـ أي: رقَّ قلب الوليد لعظمة القرآن ـ.

فبلغ ذلك أبا جهل ، فَأَتاه فقال له ـ أي: للوليد ـ: يَا عمّ إنَّ قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنَّك أتيتَ محمداً لتتعرَّض لِما قِبَلَه.

فقال الوليد: قد عَلمتْ قريش أَني مِن أكثرهم مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه ـ أي: في القرآن ـ قولاً يبلغ قومك أنك مُنكر له ، أو أنك كاره له.

فقال الوليد: فماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، فوالله ما يشبه الذي يقول ـ محمد ـ شيئاً من هذه ، والله إن لقوله ـ أي: قرآنه الذي يقرأه ـ لحلاوةً ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومُغْدِق أسفله ، وإنَّه ليعلو وما يُعلىٰ عليه ، وإنه ليُحطِّم ما تحته.

فقال له أبو جهل: لا يَرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه ـ أي: حتىٰ تقول غير الذي قلت ـ.

قال الوليد ـ لأبي جهل ـ: فدعني حتىٰ أُفَكِّرَ ـ ففكَّر ـ فلمَّا فكَّر

قال: هذا سحر يؤثر، يأثره ـ أي: ينقله ـ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن غيره، فأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ الآيات.

فلقد عرفوا الحق الذي جاء به القرآن الكريم وعقلوه، واعترفوا به وأقرُّوه، ثم جحدوا بآيات الله تعالىٰ ظُلماً وعناداً، وتعصُّباً لجاهليتهم.

وهذا كما هو في المشركين، كذلك الأمر في كَفَرةِ أهلِ الكتاب قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يَعلَمون الحق الذي جِئْتَهم به عِلْماً جازماً ولكنهم يكتمونه.

د ـ إنَّ من تدبَّر في آيات القرآن الكريم، يرىٰ فيها أنواعاً من البيِّنات والبراهين العقلية، التي يُعلِّمها الله تعالىٰ عباده المؤمنين، ليقيموا بها الحجة علىٰ أهل الباطل، ويَرُدُّوهم إلىٰ الحق المبين:

فيقول سبحانه في برهان التوحيد والردّ علىٰ المشركين: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الآية.

ويقول: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية ـ وسيأتي توضيح هذه الأدلة في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ الزاعِمين أنَّ هذا القرآن الكريم تَلَقَّاه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من أَعْجَمِيٍّ

زَعَمُوهُ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وفي سياق الردِّ علىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ هذا القرآن الكريم جاء به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مِنْ كُتب مَنْ قبله، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

ويقول في ذلك أيضاً: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ هذا القرآن الكريم قد افتراه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾.

فَتحدَّاهم وأثبت عجزهم في حالِهم، وَسَجَّل عليهم عجزهم في مآلهم، وَعَجْزَ كلَّ مَنْ يأتي بعدهم، ثم أنذرهم عذابه لعلهم يرجعون إلىٰ صوابهم واعترافهم بحقية كتاب ربهم سبحانه.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ أدعياء الربوبية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري الخالق الصانع: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري البعث والقائلين بعدم

القدرة علىٰ ذلك: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: يعيدهم ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فَخَلْقُ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، والذي قَدَر علىٰ خلق الأكبر فهو من بابٍ أولىٰ قادر علىٰ إعادة الأصغر بَدَاهةً. وسنأتي علىٰ توضيح هذه الأدلة في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

هـ ـ إنَّ كلَّ مَنْ قرأ القرآن الكريم، يرىٰ أَنَّ الله تعالىٰ حين يَذْكر آيات الإيمان والتوحيد: يُنبِّه العقلاء إلىٰ التعقل والتفكر فيها، كما أنه سبحانه حين يذكر آيات التشريع: يَحُثُّ عباده علىٰ التعقل بما فيها:

فيقول سبحانه في آيات التوحيد: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والمعنىٰ: إنَّ قضايا التوحيد والإيمان معقولة: فاعقلوا.

ويقول سبحانه في آيات التشريع، بعد ما ذكر أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والقتال في سبيل الله، وأحكام الخطبة والزواج، وأحكام الطلاق والعدَّة، وغيرها من الأحكام التشريعية، يقول سبحانه بعد ذلك كله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كما في سورة البقرة.

إذاً فالقرآن الكريم جاء يُنادي العباد العقلاء، ويخاطبهم في

إطار العقل ، ومُحيط الفكر ، ليعقلوا ما نَزل به من الأوامر المعقولة المحكمة ، المدلَّل علىٰ حَقِّيَّتِها بالأدلة القاطعة ، فإذا عقلوا ما جاء به القرآن الكريم صار عندهم علم جازم بحقية ما جاء به ، وما فيه من مصالح العباد وسعادتهم ، فيدخلون في دائرة العلم الجازم ، الذي ينتهي بصاحبه إلىٰ كل خير ، ويبعده عن كل شر.

قال تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعقلون فيعلمون. وإن العلم الجازم لَيحملُ صاحبه علىٰ العمل بمقتضىٰ ما عَلِمه ، ما لم يصدَّه عن ذلك عناد الكبر أو اتباع الهوىٰ ، وهذان أعظم أسباب صَدِّ الناس عن الاعتراف بالحق والإذعان له ، فإنَّ العلم الجازم بحقية الحق لَيحملنَّ صاحبه علىٰ الإذعان للحق ويُلزمه بذلك.

قال تعالىٰ في قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ أي: هل آمنتم علىٰ علمٍ قطعي بذلك ، بعد أَنْ عقلتم وفكَّرتم وتبصرتم ، أم أُخِذتُم بالمسايرة والمغافلة والمغالطة؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: نحن علىٰ علم جازم بحَقِّيَّة رسالته، وحقية ما جاء به ، وعِلْمُنا بذلِك حَمَلَنا علىٰ الإيمانِ بما أُرسل به ، وما وصلنا إلىٰ العلم الجازم إلا بعد تعقل وتبصُّر.

فالعلم الجازم يَحْمل صاحبه علىٰ العمل بموجبه ، ما لم يحجبه العناد أو الهوىٰ كما تقدم ، قال تعالىٰ في الكفار: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ؛ فهذا هو عناد الكبر. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ ؛ وهذا هو اتباع الهوى. وإِنَّ اتباع الأهواء يؤدي إلىٰ الفساد ، قال تعالى:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾.

فقد تبيَّن لك أيها العاقل مِمَّا تقدم ذِكْره: أنَّ ما جاء به القرآن الكريم هو المعقول المحكم، فما علىٰ العقلاء إلا أَنْ يعقلوا، وما علىٰ الحكماء والفطناء إلَّا أنْ يتدبروا ويتفكروا، لأن في آياته الكريمة منار العقول، ومنابع الحكمة، ومعاقل العلم، ومستنبط الفهم، ومواقع التذكر، وميادين التفكر، وأجواء الاعتبار والتبصُّر، فإذا عقلوا علموا أنَّه الحق؛ فيجب عليهم أن يخلعوا ربقة الهوىٰ ويؤمنوا به.

ولذلك وبَّخ سبحانه الذين لا يعقلون ما جاء به هذا الكتاب الكريم فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ونعىٰ سبحانه علىٰ الذين يُعرضون عنه، ولا يستمعون إليه ويعقلون ما جاء به فقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

وهذا شأن المبطل الضَّال، والجاحد المعارض، والمعاند الذي لا يريد الحقّ، فإنه يعرض عن كل ما يهديه إلىٰ الحق، ولا يسمع القول الحق، ولو أنه ألقىٰ سمعه إليه، وأحضر قلبه لديه: لاهتدىٰ به، وانجذب إليه. فإنَّ الحق يجذب القلوب والعقول التي تبتغي الحق وتميل إليه.

فَمَنْ قصد الوصول إلىٰ معرفة الحق، فطريق الحق واضح مُبَيَّن في القرآن الكريم، ولكن الواجب علىٰ القاصد أن يتجرَّد من ثوب الكِبر النفسي، ويتباعد عن الهوىٰ النفسي، فلا بدَّ له أن

يعرف الحق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم هو الحق ، ولا بدَّ أنْ يعترف به.

أما إذا لم يتجرد من ثوب كبريائه ، ولم يتجنَّب داعية هوىٰ نفسه: فَإِنَّ القرآن يوصله إلىٰ معرفة الحق لا محالة ، ولكن كبر نفسه وهواها يَصدَّانه عن الاعتراف به ، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ أي: أنَّ سبب عدم استجابتهم وإقرارهم واعترافهم ليس هو عدم معرفة الحق؛ بل يعرفونه ، لأن الحقَّ بَيِّنٌ أبلج ، ولكن سبب ذلك اتباع أهوائهم المنحرفة.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعلَمون أنَّه الحق ، ولكن لا يعترفون ولا يُقرُّون به جحوداً وكبراً ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

الوجه الثاني: إنَّ القُرآن الكريم جاء ينادي العقلاء بالتبصُّر ببصائره ، وبالتدبُّر في آياته ، وبالتذكر بذكرياته ، ويُحذر من الغفلة والغشاوة والعماوة:

قال الله تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

وهذه البصائر القرآنية هي بَيِّنَات القرآن وأدلته وحججه ، وقد

بيَّنها رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلّم الذي قال الله تعالىٰ له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فهي بصائر تبصِّر القلوب وتنور العقول، كالنيرات المنيرات للأعين البصرية، فمن فتح عَينَيه للنور اهتدىٰ للأمور، ومشىٰ سالماً آمناً، دون تَخَبُّط ولا تخليط، ومَنْ تعامىٰ بأَنْ أَغمض عينيه سقط في المهاوي، وهلك في المهالك، قال تعالىٰ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

والعمىٰ الذي يَجعل صاحبه شقياً في الدنيا والآخرة هُوَ عمىٰ القلب عن نور الرَّبِّ، النازل علىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فأخبر سبحانه أَنَّه أنزل هذا الكتاب الكريم للتذكر والتفكر فيما جاءهم به، وخصَّ سبحانه بالتذكر والتفكر أهل العقول السليمة وهم أُولو الألباب، لأَنَّ شأن مَنْ عقل دلائل الخيرات وطرق السعادات أن يسلك مسالكها، وينتهج منهاجها، بُغْيَةَ الوصول إلىٰ لبابها وكمالها، وقِمَمِ عَليائها.

جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فقال: وما تَدبُّر آياتِه إلا اتباعه بعقله، أما والله ما هو ـ أي: التدبُّر ـ بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتىٰ إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن وما أُسقِط منه حرفاً، وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه، فما يُرىٰ

القرآن في خُلُق ولا عمل. اهـ أي: بل الواجب أن تظهر آثار القرآن في خُلُقِ القارىء وعمله.

وقد ذمَّ الله تعالىٰ الذين لا يتدبَّرون القرآن الكريم وشنَّع عليهم، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وأما التذكُّر والانتفاع بذكرياته فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وفي هذا خبر من الله تعالىٰ مُؤَكَّد عن أمر عظيم الوقع، حقيق النَّفع، إذا توفَّرت شروطه لا يمكن تخلّفه، وفي هذا نوع من التحدِّي لمن لا يثق بذلك ويصدقه.

وذلك أن مَن كان له قلب، ومن شأنه أن يعقل به، وأحضر قلبه وجمعه علىٰ تفهم هذا القرآن وتدبُّره، ولم يَتَسَبَّب في إعراض قلبه وتفرّقه، فإنه لا بدَّ أن ينتفع بهذا القرآن الكريم، وتحصل له الذكرىٰ التي تنفعه في الأولىٰ والأخرىٰ.

كما أنه لو ألقىٰ السمع وأصغىٰ مقبلاً علىٰ هذا القرآن الكريم، فلا بدَّ من أن ينتفع به، وتحصل له الذكرىٰ والطمأنينة القلبية، والقناعة العقلية.

وقد قال العلامة المفسر ابن عطية: والقلب هنا ـ أي: في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ ـ قال: هو عبارة عن العقل، إذْ هُو ـ أي: القلب ـ محله. اهـ.

يعني: أَنَّ القلب محل العقل، فأطلق المحلَّ وأراد ما حلَّ فيه وهو العقل.

وفي هذه الآية الكريمة بيان أصناف الناس بالنسبة لتذكرهم بالذكر القرآني وانتفاعهم بذكراه:

فالصنف الأول: هو مَنْ كان له قلب زكيٌّ واعٍ، بحيث إذا جاءه أدنىٰ تذكير وتنبيه تذكَّر وازدجر، واهتدىٰ للحقِّ واعتبر، وسلك سبيله. فهو سليم الفطرة، صحيح الفكرة، كامل الاستعداد، قابل للحق والإمداد، إذا تَجلَّىٰ له نور الله تعالىٰ في كلامه انجذب قلبه إليه، واستسلمتْ نفسه مُطمئنةً لديه؛ وهذا حال كُمَّل الناس، الذين استجابوا لدعوة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين أسمعهم كلام الله تعالىٰ، وإلىٰ هذا الصنف يشير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

والصنف الثاني: مَنْ إذا جاءه الهدىٰ وتُلِيَ عليه كلام الله تعالىٰ يحتاج إلىٰ إلقاء سمعه، وإحضار قلبه، وجمع فكرته، وبذلك يَتبيَّن له وجه الحق الذي جاء به القرآن الكريم، فيعلم حَقِّيَّتَهُ وصدقه، ويؤمن به، ويتشرَّبه قلبه ويذوق حلاوته؛ وإلىٰ هذا الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

والصنف الثالث: مَنْ ليس لَهُ ذلك القلب، ولا عنده ذلك الإلقاء السَّمْعِيُّ، ولا الإصغاء، فهذا النوع يُدْعَون بالمُجَادلة بالتي هي أحسن، فلا بدَّ أنهم يستجيبون ولو بعد حين، كما يتضح ذلك في كثير من الوقائع الآتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

والصنف الرابع: هُمُ المُعَانِدون المُعَارضون، الذين يُدْعون إلىٰ

الحق عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن ، والمناظرة المدعومة بإقامة الأدلة والحجج ، فإذا هُمْ يُعَارِضُون ويُعَاندون بعدما تبين لهم الحق؛ وظهر برهانه ، فهؤلاء بعدما تقوم عليهم الحجة ، وَتُضيء لهم المحجَّة ، يُصار بهم إلىٰ الجدال بالغِلْظَة ، والأَخْذِ بالشِّدَّةِ والعنف ، لاستخراج عنادهم المانع لهم عن قبول الحق وسلوك طريقه.

الوجه الثالث: القرآن الكريم يُعلن للناس أنه جاءهم بالبرهان والنور والبيان ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وفي هذا الإعلام والإعلان العامِّ ، يتحدىٰ سبحانه جميع عقلاء الأنام ، وذلك أنَّ الله تعالىٰ لما أعلم عباده بأن هذا القرآن الكريم جاء بالبرهان القاطع ، والنور الساطع ، فهو بذلك يتحدَّىٰ كلَّ مَنْ تُحدثه نفسه بالمعارضة أو المناقضة لبرهانه ، أي: فَمَنِ استطاع أن يَنْقُضَ برهانه ، ويرد حجته فليتقدم ببرهانه وحجته، وفي هذا منتهىٰ الغلبة والإفحام لكل جاحد أَلَدَّ الخصام.

كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: هذه براهين ربّ العالمين ، فهاتوا أيُّها المُخالِفُون المُنْكرون برهانكم علىٰ ما تَدَّعون إن كنتم صادقين.

وفي هذه الآية الكريمة أيضاً بَيانٌ وتنبيه إلىٰ أنَّ ما جاء به القرآن الكريم فَهُوَ ثابت بالبرهان القاطع الذي لا يُنقَض ، لأنه برهان من رب العالمين ، أقامه حُجَّةً علىٰ جميع العباد: علىٰ مختلف أجيالهم وطبقاتهم ومستوياتهم وتفاوت ثقافاتهم.

ذلك لأن الله تعالىٰ كما أنَّه هو الغالب في قدرته وإرادته

وسلطانه ، فهو الغالب في حجته وبرهانه ، وليس بمغلوب جَلَّ وعلا ، قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ، وجميع حجج المخالفين له داحضة.

ومِنْ ثَمَّ أَمَرَ الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يعلن جاهراً بقوة حجته ، وصدق بَيِّنَتِهِ ، فقال له سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: كذبتم بعد ما بَان لكم نورٌ مبين ، وهو القرآن المعجز ، وما جاءَ فيه من البينات والحجج ، التي تجعل العاقل علىٰ يقين وبصيرة ، دون شك وعماوة ، وفي هذا يقول سبحانه لحبيبه رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ وفي هذه الآية الكريمة إعلان أيضاً بُوضوح سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وإشراق نورها ، وذلك بسبب قوة أدلتها وضياءِ بَيِّنَاتِها.

ولذا قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «تَرَكْتُكُم علىٰ مِثْل البَيْضَاءِ ، لَا يَزِيْغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ».

وروىٰ ابن ماجَهْ ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ونحن نَذكر الفقر ونَتَخوَّفُهُ.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلّم: «الفَقرَ تخافون؟! والذي نفسي بيده لَتُصبَّنَّ عليكم الدنيا صَبَّاً ، حتىٰ لا يُزيغ قلب أحدكم إزاغةً إلَّا هِيهْ، وأَيْمُ الله لقد تركتكم علىٰ مِثل البيضاء: ليلها ونهارها سواء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق والله رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ، تَرَكَنَا والله علىٰ مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

الوجه الرابع: الله تعالىٰ يأمر النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُجاهد بالقرآن ، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ .

وجهاد الكفار بالقرآن هو جهادهم بحججه ، ومجادلتهم بإقامة بيِّناته ، وهذا هو جهاد اللسان بالحجة والبرهان ، وهو أكبر وأشدُّ علىٰ المخالفين من جهاد السيف والسِّنان ، ولذا سمَّاه الله تعالىٰ جهاداً كبيراً .

وهذه الآية الكريمة تَدلُّ علىٰ أُمورٍ هامَّة ، ومن أهمِّها ما يلي:

الأول: الأمر بمجادلة المنكرين ومجابهتهم بالبيِّنات والحجج المزيلة لشبهتهم ، والمبطلة لمزاعمهم ، والدامغة لأدلَّتهم ، حتى تَزول شكوكهم وشبهاتهم ، ويتسرَّب نور الإيمان إلىٰ قلوبهم ، فتذهب ظلمات الشكوك والشبهات بأنوار الحجج والبينات .

الثاني: قوله سبحانه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ فيه دليل صريح علىٰ أن سيف حجج القرآن هو سيف باتر قاطع ، يقطع دابرَ حجج الكافرين ، ويَدحض شبهاتهم ، ويبطل ضلالاتهم ، علىٰ مختلف ألوانها وأنواعها ومنشئها ، وأنه ما مِنْ ضَلالةٍ ولا شُبهةٍ ولا باطل إلاَّ وفي هذا القرآن الكريم ردٌّ عليه ، وإبطال له ، بحجج معقولة ، وبينات مقبولة ، يَعْلَمُ ذلك مَنْ تَدَبَّر آيات الله تعالىٰ وتفكر فيها .

ومن أجل ذلك أمر الله تعالىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يجاهد بالقرآن جميع الكافرين فقال له: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا ﴾ أي: جاهد بهذا القرآن جميع الكافرين ، علىٰ

مختلف مِلَلِهِم ونِحلهم ، وأنواع كفرهم وضلالاتهم ، واختلاف اتجاهاتهم وشبهاتهم.

فلولا أنَّ سيف حجج القرآن قاطع ، ومُدَمِّر لجميع تلك الأبَاطيل والضلالات ، ما أمر الله نبيه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُجاهد به الكافرين علىٰ مختلف شبهاتهم وضلالاتهم.

وهل يَتصَوَّر العاقل أن الله تعالىٰ يُعطي رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم سَيْفاً مَثْلُوماً غير قاطع ، ثم يأمره أن يجاهد به جميع الكفار والمنكرين ، فإنَّ ذلك يعود علىٰ دعوته بالنقض والخذلان.

كلاَّ ثم كلاَّ ـ بل لَمَّا أمره الله تعالىٰ بذلك عَلِمْنا يقيناً أَنَّ في القرآن حجة قاطعة مفحمة لجميع أولئك ، وأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلىٰ عليه ، كما اعترف بذلك الجاحدون.

الثالث: مِنْ هنا يعلم العاقل أَنَّ القرآن الكريم جاء بالبراهين والحجج الدامغة للأباطيل والأضاليل ، مهما تنوَّعت أسبابها ، واختلف ألوانها علىٰ مدىٰ الأيام.

وقد جادل النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جَميع طوائف الكفار ، وأقام عليهم الحجج المفحمة لهم ، كما أمره الله تعالىٰ في هذه الآية ، وفي قوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

وكانت نتيجة ذلك:

أَنَّ منهم مَنِ اهتدىٰ وأسلم.

ومنهم من عاند ولكنه جنح إلىٰ السلم ، والرضىٰ بالذمةِ ودفع الجزية ، كما عليه أهل الكتاب.

ومنهم مَنْ عاند وعارض ، وقد قامت عليه الحجة ، وأضاءت

له المحجَّة ، فحمله كِبر النفس وعتوها علىٰ محاربة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، بَعد ما عجز عن ردّ حجج رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وإبطال أقواله ، حين ذاك أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحرب عليهم بعد ما بارزوه بالمحاربة ، فما خالفه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم أعداؤه إلا عِناداً منهم ، وميلاً إلىٰ المكابرة بسبب الكبر؛ بعد اعترافهم بصحة حجته وصدق دعوته.

ومِنْ هنا يعلم العاقل أنَّ هذا الدين إنَّما قام علىٰ دعائم الحجج والبراهين ، التي فيها ابتلاج الحق وزهوق الباطل ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾.

وأما قوله تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فهذا بعد إقامة الحجة عليهم.

والمعنىٰ: أنه لا خصومة بعد ما ظهر البُرهان ، وقامتْ الحجة، واتَّضح الدليل ، لأنه لم يبق بعدُ للاحتجاج والمخاصمة فائدة.

فمتىٰ وضح الحق واستبان ، وظهر نور البرهان ، لم يبق إلاَّ الإقرار بالحق والاعتراف به ، فمن تكبَّر وعاند يقال له: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ ﴾ أي: يوم القيامة فيقضي بالحق للمحقِّ علىٰ المبطل ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾.

الوجه الخامس: إنَّ الله تعالىٰ خَاطب العباد مِن قِبَل ألبابهم ، واحتجَّ عليهم بما ركَّب فيهم من عقولهم ، فكلّ بالغ من الجنِّ والإنس مِمَّن أمره الله تعالىٰ ونهاه ، ووعده وأوعده ، بإرسال النذر

وإنزال الكتب وما فيها من الآيات التدوينية المتلوَّة ، وبما أشهده من آثار آياته التكوينية ، فإن الحجَّة علىٰ العاقل قائمة ، وذلك لأن الله تعالىٰ أنعم عليه بالعقل ومعرفة البيان ، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ ، وقال سبحانه: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وأخبر سبحانه عن الكفار وعنادهم بعد ما ظهر الحق ، وجاءهم الهدىٰ من الله تعالىٰ وعقلوه ثم أعرضوا عنه معارضين ومعاندين ، فقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: بَيَّنَّا لَهم طريق الحق من الضلال ، علىٰ وجه يعقلونه ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾.

وقال تعالىٰ في الجاحدين للحق الذي بيَّنه الله تعالىٰ لهم ، وكفروا به بعد ما عقلوه وعلموه ، قال تعالىٰ فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يُنكرونها بعد ما عرفوا حَقِّيَّتها ، ويكذبون بها بعد ما عقلوها ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقال سبحانه في الجاحدين من أهل الكتاب بعد ما عرفوا الحق الذي جاءهم به القرآن الكريم ، وراحوا يُحرِّفونه: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعلمون عِلماً جازماً بِحَقِّيَّة كلام الله تعالىٰ وآياته ، ويعلمون بطلان ما حرَّفوه وبدَّلوه.

وذلك لأنَّ كل مَن استمع إلىٰ آيات الله تعالىٰ القُرآنية ، وأشهدها قلبه: لا بدَّ أن يَعْلم حَقِّيَّتها ، ويعرف صدق ما جاءت به ، لأنها جاءت آياتٌ لقوم يعقلون ، ولقوم يعلمون ، وآياتٌ

لأولي الألباب ، كما أن كل عاقل أجال عقله فيما يشاهده ويراه من آيات الله التكوينية؛ فلا بدَّ أن يعلم علماً جازماً بأن الله تعالىٰ هو الحق المبين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

وَمِنْ ثَمَّ أخبرنا الله تعالىٰ عن اعتراف الكفار المعاندين ـ يوم القيامة ـ بتفريطهم وذنبهم ، وأنهم هم الذين جنوا علىٰ أنفسهم وظلموها ، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ أي: النار ﴿فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

فلو أَنهم ألقوا أسماعهم إلىٰ ما يُتلىٰ عليهم من آيات الله تعالىٰ ، وأشهدوها قلوبهم لاهتدوا ، أَوْ أنهم عقلوا عن الله تعالىٰ أوامره التي في كتابه النازل علىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وتبصّروا حكمتها ومنافعها ، وأنصفوا في مواقفهم معها لعرفوا يقيناً أنها الحق ، ولا هتدوا إلىٰ سبيل الرشاد ، ولكن صدَّهم عن ذلك كله الكبر والعناد ، فسلكوا طريق الشرِّ والفساد ، فالعاقل هو الذي يعقل عن الله تعالىٰ أمره ، ويُعمل في حكمة شرع الله تعالىٰ فكره.

روىٰ أبو نُعيم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «كَمْ مِنْ عاقلٍ عقل عن الله تعالىٰ أمره وهو

حقير عند الناس ، ذميم المنظر: ينجو غداً ـ أي: يوم القيامة ـ وكَمْ مِنْ ظَريف اللسان ، جميل المنظر عند الناس: يَهْلِك غداً يوم القيامة» .

وقال تعالىٰ محتجّاً علىٰ الكفار حين يُدخلهم النار: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ، فاحتج عليهم بعقولهم .

ومِنْ ثَمَّ ترىٰ أن القرآن الكريم يَهيب بالعقلاء حين يذكر لهم آياتٍ تكوينية وتشريعية ، يهيب بهم أن يُهملوا عقولهم ويعرضوا عن التفكر فيها والتعقُّل ، فيقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تَعْقِلُونَ مَا فيه من التذكير ، وما ذكر لكم فيه .

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ والمعنىٰ: أين تُصْرَف عقولكم وتؤخذ ، هَلاَّ استرجعتم عقولكم وعقلتم بها ، وتفكرتم فيما خلق الله تعالىٰ من شيءٍ ، فإن كل شيءٍ قَلَّ أو كثر ، صغر أو كبر: يدل على الله تعالى ، وعلىٰ سعة علمه ، وكمال حكمته وقدرته سبحانه .

الوجه السادس: إنَّ الله تعالىٰ وصف القرآن بالحكمة وبالعزة ، وهذا يقتضي وُضوحه في الحجة وقوَّته في الدليل ، قال الله تعالىٰ: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ .

فقد بيَّن الله تعالىٰ لعباده أن هذا القرآن نَزل مِنْ لَدُن حَكِيم عليم ، وأنَّه القرآن الحكيم ، وأنه الكتاب الحكيم .

والمعنىٰ: أن هذا الكتاب أُحكِمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ، فهو المحْكَم بمبانيه ومعانيه ، وكلماته وبيِّناته ، لا خلل في ذلك ولا نقص ، ولا سبيل إلىٰ معارضة ذلك ولا نقض ، فهو الرصين الحصين ، والحق المبين.

وهو الكتاب الحكيم ـ أي: ذو الحكمة ـ الجامع لأصناف الحكمة ، فجميع ما جاء به فهو الحكمة التي فاقت كلَّ حكمة ، بل هو ـ أي: القرآن الكريم كما أخبرنا الله تعالىٰ ـ إليه المنتهىٰ في الحكمة قال تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾. وحُقَّ لِكِتَابٍ جَاءَ بِالحِكْمَةِ البالغة أن تكون حججه دامغة ، وأدلته قاطعة ، وإرشاداته نافعة ، لأن الحكمة منبع كل خير ، ومنار كل برّ: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، وإنَّ كتاب الله تعالىٰ هو مَجمَع الحكم ، ومنبع العلم ، ومَيْدان الفهم.

وكما وصف الله تعالىٰ الكتاب بالحكيم ، وصفه سبحانه بأنه كتاب عزيز: قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ قال: ممتنع عن الناس أنْ يقولوا مثله.

والمعنىٰ: أنَّ هذا الكتاب هو عزيز لا يُدانىٰ ، ولا يُساوىٰ ، ولا يُسامىٰ ، بل له التفوّق المنيع والمجد الرفيع ، والهيمنة والسلطنة علىٰ جميع ما سواه من الكتب ، فعزَّته تقتضي تعاليه وغلبته علىٰ غيره؛ كما هو مفهوم العزَّة لُغَة ، ولذا كان من شأنِ هذا الكتاب العزيز أنه كما وصفه الله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: لا يمكن أن يتسرَّب إليه أيُّ باطل.

وهذا العموم المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يتناول أموراً متعددة نذكر جملةً منها:

الأول: لا يأتي الباطل إلىٰ بَراهينه وحُجَجه، والمعنىٰ: أن حُجج القرآن وبراهينه كلها حق وحقيقة، فهي تُبطل كلَّ ما خالفها من حجة وبرهان، وتُثبت بطلان تلك الحجة والبرهان المخالِفَين للقرآن الكريم.

أما حجج القرآن وبراهينه فَإِنَّها لا تُبطلهما أيّ حجة، وأيّ برهان، لأنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، فحججه غالبة غير مغلوبة، صادعة غير مصدوعة، ودافعة غير مدفُوعة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

الثاني: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ بتبديل أو تحريف كلمة أو زيادة فيه أو نقص، فهذا الباطل بأَلوانه كلها لا يمكن أن يتسرَّب إلىٰ هذا الكتاب العزيز، فإنَّ الزيادة باطلة ليستْ منه، ومبطلة لإعجازه، لأن الزيادة لا تبلغ حد الإعجاز باعتبار أنها من كلام البشر، والنقصُ منه أيضاً باطل لأنه يُبطل ما هو حق ثابت فيه، ومخلّ بإعجازه، لأنَّ نقص كلمة أو جملة تخل بإعجاز الباقي، ومن البديهي أن إعجاز القرآن هو الوصف الملازم الذي لا ينفك عنه؛ كملازمة العربية له.

فلو أنك جرَّدت القرآن الكريم عن العربية لخرج عن كونه قرآناً، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

وكذلك صفة الإعجاز لا تنفك عنه، فإن الله تعالىٰ تحدَّىٰ به الأولين والآخرين بإعجازه، وأعلن عجزهم عن الإتيان بمثله لإعجازه، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية، فلو زِيْدَ فيه أو نَقُصَ: لأخل ذلك بإعجازه ولأمكن الإتيان بمثله.

الثالث: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يأتي الباطل إلىٰ أحكامه التشريعية، فإنها قائمة علىٰ عدله وحكمته، فجميع الأحكام التي شرعها مستندة إلىٰ حكمته سبحانه، الإلٰهية العالية التي لا تدانىٰ ولا تسامىٰ، وإن حكمته سبحانه هي مقتضىٰ علمه، وعلمُه مُحيط بكل شيء، وهو بكل شيء عليم.

الرابع: لا يأتي الباطل إلىٰ إخباراته الغيبية، فما أخبر عنه مما مضىٰ وهو المراد بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ فهو واقع حقاً، وما أخبر عنه أنه سيكون وهو المراد بقوله: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فلا بُدَّ أن يكون ويقع، وإنَّ تَحَقُّقَ وقوع ما أخبر عنه فيما مضىٰ لهو أكبر دليل علىٰ تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما سيكون.

وقد أقرَّت جميع الأُمم والطوائف ما أخبر عنه القرآن الكريم من الوقائع السابقة، ولم يجدوا سبيلاً إلىٰ إنكار شيءٍ منها، ولو أنهم استطاعوا تكذيب شيء منها لاحتجوا بها علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ولعارضوه، وقالوا: أنتَ تقول بوقوع كذا ولم يك شيء من ذلك ـ فتكون لهم الحجة.

ولو أن شيئاً من ذلك لم يك مسلَّماً عند الأمم، ومعلوماً لديهم في جملة الإخبارات التاريخية الماضية، لما جاءهم بها رسول الله

صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لأن العاقل الحكيم لا يفتح علىٰ نفسه باب نقد واعتراض لا يستطيع إغلاقه ، فكيف يُعلن لهم وقوع أمور لم يثبت وقوعها؟!! .

لا ولا ، وإنَّما جاء القرآن الكريم يُخبر عن أمور واقعية لا يستطيع أحد إنكارها: لا من أهل الكتاب ، ولا مشركي العرب؛ ولا غيرهم.

الخامس: لا يأتي الباطل إلىٰ الحقائق العلمية التي كشف عنها القرآن الكريم أو أقرها؛ مهما امتدت العصور ، وارتفعت الفنون ، وتقدمت العلوم ، واتسعت دائرة الاكتشافات العلمية ، والمخابر والمكبرات والأجهزة الفنيَّة ـ كما سيتضح ذلك بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه الوجوه التي ذكرناها حول الآية الكريمة ، كلُّها واردة عن السلف الصالح ، وإن عموم الآية ليشملها كلها وغيرها ، فإنها غير متنافية بل متنوعة متلازمة ، وإنَّ أمثال هذا في القرآن الكريم كثير كما هو مفصل في أصول التفاسير.

وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها إعلان التحدِّي العامّ لجميع العالم ، بأنَّ من لم يوقن بذلك ، ولم يؤمن بخبر الله عن ذلك ، وراح تحدثه نفسه بالمعارضة والإنكار ، فليتقدم لنقض شيء من تلك الفصول الداخلة تحت عموم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ولا شك أنَّه يَرجع بعد العجز خاسِئاً وهو حسير.

فإنَّ الأمر الواقع قد أثبت حَقِّيَّة ما أخبر عنه القرآن الكريم ، وصِدْقَ ما جاء به من البينات والأدلة، ولم يستطع أحد من

الحكماء ، ولا العقلاء ، ولا أدعياء الثقافة والحصافة: أن يأتوا بدليل قاطع يبطلون به ما أثبت القرآن الكريم حقيته ، أو يُحقّون ما أثبت بطلانه وفساده ، أو يأتوا بما هو أهدىٰ للأمة ، وبما هو أصلح لها من الأحكام التشريعية الإلٰهية الكافلة للمصالح البشرية ، وفي ذلك كله تتجلّىٰ معاني: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

الوجه السابع: إنَّ الله تعالىٰ سَمَّى هذا القرآن الكريم: فرقاناً ، وهدىً ، وبياناً ، وتبياناً لكل شيء ، ونوراً ، وبصائر ، ودعا سبحانه جميعَ العقلاء إلىٰ التفكر فيما جاء به ، والتذكر والتبصر والتدبر والاعتبار ، وفي هذا حجة الله تعالىٰ علىٰ جميع مَنْ كانوا ، وأين كانوا ، ويتضح ذلك من وجوه متعددة:

الأول: إن في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

إنَّ في ذلك كله إعلاناً من الله تعالىٰ عاماً ، وإعلاماً لجميع عباده بحجيَّة هذا القرآن الكريم ، وقوة برهانه ، ووضوح بيانه ، وظهور تبيانه ، وحَقِّيَّةِ هَدْيِهِ ، وهيمنة سلطانه.

وجلَّ الله تعالىٰ الحكيم العليم وعزَّ عن أن يعلن ذلك لعباده ثم

تكون حقيقة الأمر وواقعه خلاف ذلك ، تعالىٰ الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً .

فإن أَدْنَىٰ مَنْ له حظٌّ من العلم والحكمة يتعالىٰ عن ذلك ، فما ظَنُّكم برب العالمين ، الذي نَزَّل القرآن بعلمه وبحكمته ، قال تعالىٰ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

الثاني : إن في ذلك الإعلان عن القرآن تحدياً صريحاً لجميع العقلاء والحكماء ، والفطناء والعلماء ، وحملاً لهم على التذكر والتدبر في تلك البينات والحجج ، والاعتبار في تلك البصائر ، والتفكر فيما هدىٰ إليه القرآن الكريم .

فلا شكَّ أنهم بعد التفكر والتدبر ، يقفون أمامه موقف المقرِّ المعترف المحجوج ، وَمَن ادَّعىٰ غير ذلك فليتقدم بحجته وبرهانه ، ولِيَردَّ ما أثبته هذا القرآن الكريم إن استطاع لذلك سبيلا ، وأنىٰ لهم ذلك : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ ؟ .

الثالث : لذلك دعا القرآن الكريم جميع العقلاء إلىٰ التفكر فيما جاء به ، والتذكر والتدبر والتبصُّر والنظر والاعتبار .

ومعاني هذه المدارِك متقاربة ، تجتمع في شيء ، وتنفرد في شيء آخر ، وهي متلازمة ، وينتهي بعضها إلىٰ بعض ، ويوصل بعضها إلىٰ بعض .

فالتفكر هو : استعمال الفكرة في الأمر الذي يفكر فيه .

والتذكر هو : إحضار ذلك الأمر عنده ، مصحوباً بإحضار العلم

حول ذلك الأمر ، وما يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه.

وقد يطلق النظر علىٰ كل من التفكر والتذكر ، ويقال: نظر فيه أي: فَكَّر وتذكَّر ، لأن النظر في الشيء يَحتاج إلىٰ إحضار القلب ، والتفاته إلىٰ المنظور فيه.

وأما التدبُّر فهو: النظر في أواخر الأمور وعواقبها ، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

فالتدبُّر في القول يتطلَّب النظر في أوله وآخره ، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة ، مع التفهم والتبين للمعاني.

وأما الاعتبار فهو: افتعال من العبور ، لأنه يَعْبر منه إلىٰ غيره ، فيعبر من ذلك الأمر الذي قد فكَّر فيه إلىٰ معرفة أَوَاخره ، وهو المقصود من الاعتبار ، ويسمَّىٰ: عبرةً ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

وقد نَوَّع الله تعالىٰ الآيات ، وصرَّفها لعباده ، ليقيم عليهم الحجة ويبيِّن لهم المَحجَّة ، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، فهو سبحانه يَذكر لعباده الآيات الآفاقية، والنفسية، المشهودة بالعيان، والمذكورة بالجَنَان.

ومن هذه الوجوه المتقدم ذكرها يتضح لك أيُّها العاقل: وجوب التعرُّف إلىٰ كتاب الله تعالىٰ ، والتفكر فيه ، والتدبُّر والاهتمام كل الاهتمام بتعلمه وتفهمه، والاطلاع علىٰ براهينه وبيِّناته، والاستبصار بأنواره ، والاعتبار بأخباره ، والاتِّعاظ بمواعظه ، والائتمار بأوامره، والانتهاء عما نهىٰ عنه، وانتهاج مِنهاجه القويم،

والسير علىٰ صراطه المستقيم. اللهمَّ وفقنا جميعاً لذلك آمين.

وها أنا أذكر بعض الكلمات التي تنهض بالهمم المتقاعسة، وتقوِّي العزائم المتخاذلة، وتدفع بالعاقل نحوَ كتاب الله تعالىٰ، والإقبال علىٰ تفهمه وتدبُّره إن شاء الله تعالىٰ ـ بعد استكمال الكلام علىٰ هذه الوجوه ـ.

الوجه الثامن: من الوجوه الدالَّة علىٰ أن الدين جاء بقضايا معقولة، وكلُّها عند أهل العقل السليم مقبولة، هو: أنَّ القرآن الكريم جاء يَرسم أَقْوم خُطَّةٍ في الدعوة، ويبيِّن أن الناس في ذلك علىٰ أصناف.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وهذا الأسلوب في الدعوة هو أنجح وأصلح الأساليب، وذلك أن الله تعالىٰ شرع وأمر أن تكون الدعوة إلىٰ سبيله علىٰ حسب مراتب المكلفين في قابليَّتهم، ومقابلتهم، وتقبلهم، وإعراضهم، لأنهم علىٰ أصناف ثلاثة:

الأول: هو صِنْف اللبيب الذكيِّ القابل للحق، الذي لا يعانِد ولا يعارض الحق، بل يستجيب للدعوة متىٰ بدا له نور الحق بدون توقُّف، فهذا يُدعىٰ بطريق عرض الحكمة عليه، وإلقائها بين يديه، فإذا بدتْ له أسرع إليها، وتقبَّلها، وتمسَّك بها، وتعشَّقها، كما وقع ذلك للصحابة الكرام حين سمعوا القرآن الحكيم من سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ومن هذا الباب

قصة أكثم بن صيفي حين أرسل وَلَدَيْه إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَسأله: (مَنْ أنت ، وما أنت ، وبِمَ جئتَ به)؟.

فأتيا النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فسألاه عن ذلك.

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أمَّا مَنْ أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» أي: إني أنا المعروف في شرف نسبه وحسبه فوق كل نسب وَحَسب.

«وأمَّا ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾».

فلما رجعا إلىٰ أبيهما وأبلغاه الأجوبة ، وقرآا عليه تلك الآية الكريمة الجامعة ، قال: (يا بني إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهىٰ عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً). اهـ.

أي: أسرعوا إلىٰ الدخول في دينه ، فإنه جامع لكل خير ، ومحذِّر من كل شرٍّ.

الثاني: هو صنف العاقل القابل للحق ، ولكن عنده نوع من الغفلة أو الكسل ، أو ضعف في العزيمة ، أو مَيل للشهوات المحرمة ، فإنه يُدعىٰ بطريق الموعظة الحسنة وهي: الأمر والنهي المقترنان بالرغبة والرهبة ، وبالوعد والوعيد ، وذكر عواقب المحاسن الكريمة ، وبيان عواقب المساوىء الذميمة ، وما يُؤدي ذلك إلىٰ ثواب أو عقاب ، ويتجلَّىٰ ذلك فيما ذكره الله تعالىٰ في مواعظ لقمان لابنه:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ ﴾ وفي هذا تلطُّف الواعظ بالموعوظ ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي هذا تنفير عما ينهاه عنه ، وإبعاد له عنه باعتبار أن الظلم سيء ذميم.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أي: يُحضرها للحساب يوم السؤال والحساب ، ليجزي عليها الثواب أو العقاب ، وفي هذا وعد ووعيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ وفي هذا تحذير وتخويف من جناب الله تعالىٰ.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ وفي هذا تنشيط لهِمَّته ، وتقوية لِعَزيمته ، وإبعاد له عن الكسل والتقاعس عما أمره به.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: بَطِراً متكبراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ وفي هذا تخويف من عقاب الله تعالىٰ وغضبه.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ وفي هذا تقبيح لفعل القبيح علىٰ وجهٍ بليغ في التنفير منه.

ولا بدَّ في حسن الموعظة من لِيْن المقال ، وعدم مقابلة الجافي بجفوة ، كما جاء في الرجل الذي استأذَن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الزنا وأمثاله:

فقد روىٰ الإمام أحمد في (مسنده): أن رجلاً جاء إلىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يستأذنه في الزنا.

فقال النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أترضاه لابنتك»؟

فقال الرجل: لا. فقال: «وكذلك الناس لا يرضونه».

فقال: «أترضاه لأمك»؟ فقال: لا. فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «كذلك الناس لا يرضونه» أي: لأمهاتهم.

فقال: «أترضاه لأختك»؟ فقال الرجل: لا. فقال: «كذلك الناس لا يرضونه». فرجع الرجل وتاب من ذلك.

ولا بدَّ في حسن الموعظة من ذكر عقاب المخالفة، ومن رأفة الواعظ بالموعوظ:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا آخذ بحُجَزكم وأقول: إيَّاكم وجَهنَّم، إيَّاكم والحدودَ، إيَّاكم وجَهنم إياكم والحدود، إياكم وجهنم إياكم والحدود ـ ثلاث مرات ـ فإذا أنا مِتُّ تركتُكم، وأنا فرطكم علىٰ الحوض، فَمَنْ وَرَدَ أفلح» الحديث.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم ومُحقَّراتِ الذنوب ـ أي: صغائرها ـ فإنما مَثَلُ مُحقَّرات الذنوب كَمَثَلِ قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاءَ ذَا بعود وجاء ذا بعودٍ، حتى حملوا ما أنضجوا به خُبزهم، وإن محقَّرات الذنوب متىٰ يأخذ بها صاحبها تُهلكه».

الثالث: هو صنف المعاند المعارِض، بسبب شبهات ضالَّة تمكَّنت فيه، أو شهوات سيطرت عليه، حتى صار كالأسير بين يديها، فهذا الصنف يُجادَل بالتي هي أحسن ـ أي: بالطريقة التي هي أحسن ـ طرق المجادلة والمناظرة التي يتطلَّبها حاله، حتى ينتقل من تلك الحال، ويرتقي درجات الكمال.